حين تبكي المدن

ليلى العثمان

أختي هي التي شاهدت ذلك المنظر .. لكن الصورة المرعبة التي ارتسمت في عينيها كالوشم الأبدي انتقلت إلى مخيلتي لتنحفر فيها كما تحفر « حبة بغداد » أثرها في الوجوه الناعمة .

كانت طفلة .. ترتقي درجات السلم المؤدي إلى السطح كل يوم .. حيث غرفة ألعابها .. لكنها في ذلك اليوم صعدت وقت القيلولة ، وأبي هناك ينام في غرفته المطلة شبابيكها على المطار القديم .

يومها انحدرت أختي كما تنحدر كرة مقذوفة بأقدام الصبيّة .. هلع أصفر يبرق في عينيها وكل عضو في جسدها ينتفض كأنها القنفذ في لحظة الخطر .

تعثرت الكلمات بين شفتيها ولسانها يرتجف بها ويطل من بين شفتيها الصغيرتين المضمومتين دائماً كأنهما تزفران الهواء إلى أعلى ..

الصورة تنتقل من عثرتها بفم أختي إلى سمعي إلى ذهني الصافي الذي يقبل الألوان وتنطبع فيه بسهولة :

ـ « أم قاسم عارية في حجرة أبي .. وأبي يلعب بصدرها .. يرضع ! »

تخيلت أم قاسم بجثتها القصيرة البيضاء .. ووجهها المربع وفمها الذي يشبه رقم الثمانية .. حين تضحك وتمد لسانها العريض فتبدو طواحينها العليا من الجانبين ، والسفلى وقد اكتست بالذهب الغالي .

تخيلتها عارية في حضن أبي .. بصدرها الوردي المحموم الذي يطل شقه الرفيع كمجرى الماء دائماً من فستانها ذي الفتحة الواسعة .. حتى أنني كدت مرة ألمح حلمتيها عندما انحنت إلى الأرض تلتقط قبقابها ذي الخرزات الملونة ذات الأشكال الطولية المرصوصة بفن وأناقة ، وتخيلت أبي طفلاً يشد صدرها .. ويعابثه بيد كيد أخي الصغير حين يبحث عن صدر أمي المحروس دائماً خلف ثوب مستور من صنع يدها .. وحين تفتح الفستان وتقذف بصدرها إليه تتلاعب قدماه الصغيرتان ويداه الناعمتان .. ويمد لسانه يلحس حلمتها ، وأسمع صوت امتصاص الحليب يجري من نهر أمي إلى ثغره ثم يترك الصدر ليتنفس بعمق .. فتسيل قطرات من الحليب من حلمة أمي .. أمد أصبعي إليها وأبلله ثم ألحسه فتقول مداعبة :

ـ تشتهي أن تعود رضيعاً يا سالم !

كان عمري يومها اثنتي عشرة سنة . وكانت الطفولة لا تزال جزءاً من أيامي .. وأبي الذي ودّع الطفولة منذ زمن يعود إليها .

في ذلك اليوم .. وغيره من الأيام ، تبقى أمي في الليوان تخيط الملابس .. وعيني تراقب زندها النحيف يدير الماكينة فأشفق عليها وأرجوها مرة .. وثلاثاً حتى تسمح لي بأن أديرها . بينما تمسك يدها بالقماش وتسحبه باليد الأخرى .. وبين لحظة وأخرى تلتفت إلي معاتبة :

ـ ألن تكف عن تمزيق ملابسك ؟؟

وأهز رأسي .. أكاد أعدها .. لكن عربة حصان جارنا « أبو خلف » التي نتسلقها ونقفز منها تشدني فأسحب وعدي بابتسامة مغرية تثير حنان أمي التي تأمرني بلطف :

ـ قم للنوم .. ألا ترى كيف ينام أبوك في القيلولة .؟

والقيلولة بالنسبة لأبي أمر هام .. لكنها لا تحلو إلا في غرفة السطح حيث نسمة الهواء الآتية من النوافذ المشرعة .

لكن بعدما رأت أختي المشهد أدركت أن لغرفة السطح فوائد أخرى غير هوائها المنعش . فهناك يخلو أبي .. يبحث عن جسد يمتدّ على فراشه غير جسد أمي .. وأم قاسم تأتي دائماً في القيلولة باكية .. شاكية لأمي :

ـ أخي .. الكلب .. الحرامي .. سرق أرضي .. نهب مالي ..

ثم تسأل أمي وكأنها لا تدري أين مكان أبي :

ـ « وين ابو سالم الله يعافيك » ؟

وتشير أمي باتجاه السطح لكنها تكون قد وصلته قبل أن تكمل أمي اشارتها .. ساحبة خلفها عباءة سوداء مسدولة عن رأسها وعن جزء من كتفها فيبدو لحمها الأحمر قانياً وصوت سبابها القذر يتقاذف كالنثار :

ـ ابن « ...... » سرقني القواد .. لن يفيد معه إلا أبو سالم .. فلا بد أن أشكوه !!

والشكوى تتكرر.. يوماً بعد يوم .. وأخوها « القواد » لا يفتأ يسرقها .. وينهب مالها .. فتأتي لأبي تشكوه وأمي تزفر وتنحني على الماكينة كالقوس وتردد :

ـ « الشكوى لله .. سالفة أم قاسم ما تخلّص »

كذبة كبيرة .. صدقناها .. واستمرأنا خطوتها داخل بيتنا حتى انفلتت قدما أختي كما تنفلت الخيل من مربطها لتعْلن ما شاهدته .. وتكشف سر أبي الذي لم يكن يسمع شكوى أم قاسم بل كان يشمّها !

أما أمي .. فقد تبلدت .. وأصابها ما يشبه الموات في ساقيها فلم تتحرك حتى عندما انفلت أبي خلف أختي وأخذ يمزق جسدها الأسمر الرقيق « بقصمول » السعف دونما رحمة .. وكأنه بهذا الجلد البشع سيمحو من ذاكرتها المشهد المروّع .

ظل المشهد أثراً محفوراً في ذاكرتي .. وظل وجه أم قاسم الخليع يتماوج في عيني كلما عبرت السنين . حتى التقيت لأول مرة في « حوطة »[1] الحيّ « بعليّة » ابنتها . فراودتني النفس أن أمازحها وأعاكسها .. فحاوطت الهواء من حولها فاتحاً ذراعي الطويلتين . كانت تتحرك إلى اليمين .. فأميل ساداً عليها الطريق .. وتتحرك إلى اليسار فأسبقها ساداً عليها منافذ الهرب .

كانت تحمل « بقشة »[2] خضراء فاقعة منثورة عليها ورود ذات ألوان بنفسجية وصفراء .. سحبتها منها فانفلتت من يدها إلى يدي دون مقاومة

وسألتها :

ـ لمن هذه الأغراض ؟؟

ولم أنتظر إجابتها . . سارعت يدي تحل عقدة طرفي البقشة المتقابلتين . . ثم حللت عقدة الطرفين الآخرين فتبعثرت الأشياء أمامي .

ديرم(٣) ـ ومشط من الخشب العريض . . دهن أخضر في زجاجة رسمت عليها زهرة حمراء . . أشم رائحته دائماً في رأس أمي بعد كل حمّام . . حنّاء . . وليفة حمّام . . ونعل جلدي . . صرة فيها شيء ناعم كالتراب لكنه لم يكن كذلك حين انهمر بعض منه في كفي . .

قنينة عطر على هيئة ثلاثة قرود . . يصم الأول أذنيه والثاني يغلق فمه . . أما الثالث فقد حجب عينيه بكف يده .

قربت الزجاجة من أنفي طمعاً بشم رائحة زكيّة . . لكن شوقي تبدد حين لامس طرف الزجاجة فسألتها :

ـ ما هذا ؟

قالت مرتجفة ولعابها يلمع على شفتها السفلى :

ـ كولونيا . .

قربت الزجاجة ثانية . . تصنعت العنف وصرخت في وجهها :

ـ لا تكذبي ! هذا ليس كولونيا . .

انحدرت دموعها فجأة حين رأتني أفتح الزجاجة ثم أصب ما فيها على الأرض . . وتوسلت :

ـ أرجوك . . لا تفعل . . سوف تذبحني أمي لو عرفت !

هدّأتها :

ـ ما هذا . . ـ مشيراً للزجاجة ـ أخبريني ما هذا ولن أخبر أحداً .

هوت بجسدها إلى الأرض تلم البقشة ، وتمنيت لو ألمح شق صدرها كما لمحت شق أمها من قبل لكن الصدر كان مستوراً كصدر أمي .

همست بصوت اعتراه كثير من الخجل ودون أن تنظر إلي :

ـ هذا بول . .

شهقت :

ـ بول ؟ بَوْلُ مَنْ ؟

رفعت عينين جميلتين . . ثم عادت ونكستها ثانية :

ـ بول أمي !

دهشتي تتابعت بالسؤال :

ـ بول أمك ، في زجاجة ، وتقولين كولونيا ؟

قبل أن تنطق لمحت كيس الخباء الرخو وهي تحمله في يدها لتضعه في البقشة فهزئت منها :

ـ وهذا . . ما هذا . . « براز » أمك ؟

زمّت شفتيها بقرف . . ولم تجب .

وقفت . . فاقتربت منها وقد خجلت من نفسي . . لامست كفي كتفها . . فارتعشت . . فربَتُ على زندها أسألها :

ـ حسن . . ولم تبول أمك في الزجاجة ؟

ورفعت الزجاجة التي فرغت أمام عينيها وأنا أكمل :

ـ وزجاجة كهذه بالذات . . لا تسمع . . ولا ترى . . ولا تتكلم . .

ابتسمت . . ثم تداركت وكشّرت فسألتها :

ـ لمن هذه الزجاجة ؟

وأشارت . . تابعت إشارتها فإذا بها تدل على بيت جار لنا فسألتها لأتأكد من قولها :

ـ هناك . . ذلك البيت الأصفر ؟

هزت رأسها مؤكدة :

ـ نعم . . نعم هو . .

وعاد إليها سؤالي الذي حسبته ضاع . . ولكن بشكل آخر :

ـ ولكن ! لماذا ؟ هل يتعطر جيراننا ببول أمك ؟؟

هذه المرة لم تستطع أن تكتم ضحكتها فانطلقت كتغريد عصفور . . وصدح صوتها ببراءة :

ـ أمي تعمل السحر لبيت جيرانكم . . ولكل من يطلب منها . . تبول في الزجاجات وتوهم النساء أن هذا دهان . . إذا دهنت الواحدة منهن ملابس زوجها فإن عيونه لا تنشغل بامرأة سواها . . ولا يسمع لكلام الناس عنها . . ولا يتفوه على زوجته بكلمة تجرح مشاعرها .

ـ لكنه بول . . وليس دهاناً !

ـ هذا صحيح . . لكن النساء لا تعلمن ذلك . . بل تحسبنه علاجاً سحرياً لأسْر الأزواج .

وانتبهت أنها فضحت أمراً ما كان يجب أن تنطق به فسحبت الزجاجة من بين أصابعي . . وهي تتأفف بحزن :

ـ أف ! ها أنت سكبت ما فيه : فماذا أفعل ؟

واندفعت الفكرة إلى رأسي . . وتتالت . . وامتدت حتى ملأت كل جسدي . . فسحبتها من يدها . . جررتها إلى « ربعة » الحوطة . . وحبستها خلف برميل عريض صدىء . . سحبت الزجاجة التي لا تزال في يدها . . ورفعت ملابسي . . نزعت لباسي . . وقربت فوهة الزجاجة ، وأخذت أبول فيها وهي جامدة تخدّرها المفاجأة وارتعاش يهز رموشها تحاول فيه أن تمنع نفسها من النظر فلا تقوى . .

كلمتها :

ـ لا تخافي . . سأملأ لك الزجاجة .

امتد ارتعاش رموشها إلى الجسد . . حين فرغت لمحتها تتكوم على نفسها ! وتضغط على صدرها بين ذراعيها . . فحرثت الشهوة في عقلي . . وشد الماضي لجامه . . يتجوّل بي مسرعاً إلى صدر أمها الذي رأته أختي في فم أبي . . وفي أعماقي . . صرخ الصوت :

افعل . . افعل ما فعله أبوك بأمها . . اخدعها . . كما خدعت أمها أمك الغافلة . . واسفح الدم كما سفحه أبوك من جسد أختك التي شهدت الخيانة !

انتفضت عنها كما ينتفض الحصان حين تهدر الصرخة من حوله . . وأسلمت ساقيّ للريح خارجاً من باب الحوطة .

لم تراودني مطلقاً بعد ذلك فكرة الزواج منها . . فمن يدري . . قد تكون هي الأخرى نطفة أبي التي انزرعت في رحم أم قاسم .

(١) مكان فسيح مسور له بابان من جهتين متقابلتين .

(٢) صرّة الملابس .

(٣) عود نباتيّ كان يستعمل في تزيين الشفاه .